مقدمة الكتاب

قرأت فى كتاب «تعلمت من الحياة» – الذى نشـرته دار الهلال المصرية منذ حقبة من الزمـن، وهـو عبارة عن نتف متفرقة مـن الدرر الثمينة – لكوكبة من أفذاذ الشـرق وعلماء الغرب من الأقيال الذين تركوا بصماتهم على الحياة التى عاشوا بين ظهرانيها فى بلادهم، جاء فى توطئته: سـئل أديب كبير: ما الذى تحبه وتهواه فى حياتك؟، فأجاب: القراءة، ولا سيما تاريخ تراجم العظماء.

لا جَـرَم أن ذكـرت هذا الكتـاب المفيد، لأن مقـالا ورد فيه يدل علـى العقل الخلاق Creating mind، أثر فى تكوينى، وكان بعنوان «الحياة تافهة إذا خلت من مثل أعلى»، للعلامة «الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهورى» الذى أفاد بعلمه النافع الغزير على من يعمل فى الحقل القضائى، ناهيك عن مراكز العلم الفقهى فى مصر والبلاد العربية قاطبة، حيث توسـد القضاء وكان رئيسـا – ولا كل رئيس – لمجلس الدولة المصرى، أشار فيه هذا الفقيه العظيم إلى أن حياته لم تكن لتسـير نحو التألـق الفكرى القانونى، الذى جاء يتدفق كتدفق ميـاه النيل، والعطاء الفكرى الألمعى، الذى تـرك أثره البالغ فى المجتمع القانونى برمته، لولا إيمانه بهذا المبدأ الذى ترسمه وجعله لنفسـه نبراسـا وديدنا فى الحياة، لتغير نهجه وتبدلت أفكاره، وما كان قد وصل إلى ما وصل إليه من التألق والنبوغ.

قـد كان والـدى – رحمة الله عليه – مثلا أعلى لى فى الحيـاة. هذا الوالد الكريم، فقد أباه فى سن باكرة، ولم يكن قد شب عن الطوق بعد، إذ كان فى السابعة من عمره، فتكفله خال والدته المرحوم «فتح الله باشا بركات» الذى كان له دوره فى الحياة السياسية المصرية ونفى مع خاله الزعيم «سعد زغلول» إثر اندلاع ثورة ١٩١٩ إلى جزيرة «سيشل»، وبعد وفاته أحاطه خاله المرحوم اللواء «عاطف باشـا بركات» بكامل رعايته، فكان كلاهما المثل الأعلى له فى الحياة إذ تعلم من الأول معنى العصامية، ومن الثانى الشجاعة فى إبداء الرأى والهمة فى اقتحام كل ماهو جاد فى مسيرته.

كان – رحمه الله – يجيد الإنجليزية والفرنسية، فضلا عن تألقه فى اللغة العربية وإجادته لها إجادة تامة حتى إنه كان-على حد تعبير الأديب الكبير الأستاذ «يوسف جوهر» – فى

لقاء لنا معه بجريدة الأهرام إذ قال لى: إن والدك كان، واللغة العربية توأم لا ينفصل، إثر التحاقنا معا بكلية الحقوق جامعة فؤاد الأول عام ١٩٣٠، ففى الندوات الأدبية التى كانت الجامعة تعقدها لطلابها بين الحين والحين. بان ذلك جليا. ووضح لنا أجمعين. كان - رحمه الله - قارئا نهما فى شتى صنوف المعرفة، ويكتب فى الصحافة المصرية وخاصة جريدة السياسة التى كان يترأس تحريرها الدكتور «محمد حسين هيكل باشا».

علمنى والدى - رحمه الله - ماذا أقرأ؟.. وكيف أقرأ؟ حتى أدْمنت القراءة إدمانا، وإذا كان القول المأثور يقول: منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال، فقد كان دأبه أبدا هو طلب العلم - دون المال - فأصبح قاضيا شجاعا فى إبداء الرأى وفى كلمة الحق، عالما قوى الحجة ذرب اللسان ناصع البيان، يحرص دائما على تغذية عقله بالقراءة، فعلمنا فأحسن علامنا، وربانا فأجاد تربيتنا، وذلك بمشاركة - المغفور لها - والدتى التى بذلت من نفسها كل مرتخص وغال فى سبيلنا، وأدلت بدلوها فى تكويننا، ومن مأثرها أنها كانت تمدنى بالنقود، لكى ابتاع بها ما شاء لى من الكتب، فضلا عن أنها كانت تأتى بها إلىَّ.

كما ترك أستاذنا «العقاد» بصماته الواضحة على حياتى حتى أستطيع أن أزعم إننى قد قرأت جميع تواليفه مرة ومثنى وثلاث، ونهلت من منهلها العذب، فاستقام عود اللغة لدى واستوعبت الغزير من علمه وأدبه، نثرا وشعرا، فقد تميز أستاذنا «العقاد» عن أضرابه من المفكرين والأدباء بعبقريته التى قلَّ أن يجود بمثلها الزمان.

أما الدكتور العالم «على عبد الواحد الوفى» (ابن خلدون الصغير) كما أطلق عليه فقد أخذت منه معلى عمق القراءة وتنوع الثقافة، إذ دبج يراعه ما يربو على السبعين كتابا فى مجالى الفكر المتباينة، وإذ استشهدت بكتابه القيم «المساواة فى الإسلام»، وأنا لما أزل - بعد - فى القسم العلمى بالثانوية العامة، فما كان من أستاذ اللغة العربية إلا أن وجه إلىَّ تحية بالغة لقرائتى لهذا الكتاب المتميز.

عكفت على قراءة الكتب وانكببت عليها وأنا فوق سن العاشرة بقليل، فى شتى مناحيها وتباين موضوعاتها، فمن الأدب العربى إلى الأدب الغربى، وكذلك الأمريكى، فقرأت الكامل للمبرد، والأغانى للأصفهانى، ولسان العرب وغيرها من أمهات الكتب، وكذلك استهوتنى مؤلفات «شكسبير» و «نيتشة» و «تشارلز دكنز»، و «جوركى»، «وتولستوى» و «بوشكين» عباقرة الأدب الروسى، وكذلك نوابغ الفكر الأمريكى مثل أرنست همنجواى، وأرثر ميللر،

وويليام جيمس ديورانت، الذى جاءت موسوعته قصة الحضارة تفتق أذهان القارئين فى كل مكان وزمان، ناهيك عن «هاريت بيتشر ستو» صاحبة الكتاب الرائع «كوخ العم توم» الذى صور مأساة الزنوج فى أمريكا تصويرا هز قلوب البشر؟.

كان المتعلمـون فى الماضى يذهبون إلى دكاكين «الوراقين» يطالعون الكتب فيها، ومازلت أتذكر أن أحد الأدباء القدامى، ولعله «أبو هفان» الذى قال: لم أر قط ولا سمعت عمن أحب الكتب أكثر من «الجاحظ» فإنه لم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كاملا حتى إنه كان «يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر»، حيث كان فى عصره أكثر من مائة وراق، وكانوا علماء مجيدين، منهم «النديم» صاحب الفهرس، و «ياقوت الحموى» صاحب معجم البلدان ومعجم الأدباء. وكان «الحسن بن سهل» كما كتب صاحب «الكشكول» فى كشكوله يقول: إن القارئ يجب أن يعرف الضرب على العود، ولعب الشطرنج، والصولجان، ويعرف شيئا من الطب، والهندسة، والفروسية، والشعر، والنثر، وأيام الناس، ويتعلم أحاديث السمر، ومحاضرات المجالس؟.

وها هوذا «أبو الدرداء» يقول: «لو أعيتنى آية من كتاب الله. لم أجد أحدا يفتحها علىَّ إلا رحيلى» إلى برك الغماد، لرحلت إليه. وبرك «الغماد» هو مكان قفر كان يضرب به المثل فى الوحشة وطول المسافة وبعدها.

هكذا كانوا يحرصون على العلم، وعلى القراءة، وعلى شد الرحال إلى المكان الذى يعثرون فيه على ضالتهم فى «بواكير شبابهم»، مع بعد الزار، ومشقة المزار.

قال الشاعر:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه
فإن من أدبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا ... بعد الذى أبصرت من يبسه

والذى لا مراء فيه أن الكلمة التى ولدت من رحم القراءة، لعبت دورا هاما وأدت رسالتها فى الحياة الإنسانية، جعلت الأمم تشق طريقها فى الظلمات بمصابيح الرواد العظام التى كانت أشبه بمصباح «ديوجين» فأخرجتها من ربقة الجهل ومن تحنط الجمود إلى نور العلم، وها هى ذى أوربا تمعن نظرها وتعمل فكرها فى مؤلفات العرب والمسلمين التى أشرقت عليها فى العصور الوسطى، ويحدثنا التاريخ أن «ألفونسو» ملك «قشتالة» قد أمر بترجمة

الكتب الإسلامية فى مؤلف باسم Libros del Saber لجعل المعارف العربية متاحة «باللغة القشتالية». كذلك بترجمة «الإنجيل»، وتعليم أبناء وطنه اللغة العربية، ليستقرئوا علم وفكر العرب.

أما القارة الأروبية بأكملها فقد يممت وجهها شطر الفيلسوف الحبر الفهامة والعالم العلامة «ابن رشد» فعرفت طريق النهضة، بعد أن قرأت مؤلفاته، واكتشفت مهاوى جهلها الذى كانت تلج فيه فى الإمساء والإصباح!.

فهل لسائل – بعد ذلك – أن يسأل: هل القراءة لازمة؟. وهل القراءة مفيدة؟

نترك لمن يعن له أن يسأل، أن يعيد قراءة هذه المقدمة.

أما بعد، فمن خلال قراءاتى المتواضعة كتبت هذه الخواطر فى مناسبات شتى متفرقة نشرت فى الصحف المصرية، رأيت أن أجمعها بين دفتى هذا الكتاب.

المستشار محمد مرشدى بركات

القاهرة ـ ٢٧ ـ ١ ـ ٢٠١٣